20000411-00142-2

تتذكر تما تتعاد

أذكر الكابوس الذي راودني لفترة سنة، كابوساً يومياً، مشهد قذيفة تخترق وجهي ما أن أرفعه من وراء سرير جدتي..

أذكر جارتنا التي كانت تخبئ رأسها تحت طاولة المطبخ وتتصرف إلى ابتلاع كم هائل من الحبوب المهدئة، يومياً..

أذكر صورة رسمتها وأنا في الخامسة من العمر لمشهد وفاة ابنة خالي التي فصلت شظية إسرائيلية رأسها عن بقية جسدها، وهي في السابعة عشرة من العمر.. مشهد كنت أراه يومياً..

أذكر دموع أمي التي حين لم تكن تبكي البلد كانت تبكي نفسها، تبكي ما عاشته وما لم تعشه بعد، تبكينا وتحضننا من دون أن تفسد تربيتنا التي هي كل ما بقي لها لتمارسه من اختصاصها الجامعي : علم النفس..

أذكر وجهها عندما نهرها عنصر من "حزب الله" بعدما طلبت منه، من البلكون مباشرة، أن يخفض صوت نواح عاشوراء، ف "البروفيه بعد يومين".. أذكر أنني اكتشفت حينها أن أمي "حرمة لازم تتضب".. كرهته كي لا تكون أمي ضعيفة.. كرهته لأحباها.

أذكر صورتي الفوتوغرافية أمام قرميد بيتنا العتيق الذي أصابته قذيفة إسرائيلية، أذكر الحزن البادي على وجهي وأنا أبكي قرميداً أحببته فرحل..

كنت أخاف البونبون لأنه كان ممنوعاً علينا أن نتناوله بعدما ترميه الطائرات فهو ربما مسموم.. بونبون مسموم.. حينها، كان البونبون مخيفاً أيضاً..

أذكر الحد الفاصل بين اللهو والحقيقة : أذكر مسدس شقيقتي اللعبة الذي شهرته مرة، من البلكون ذاته، في وجه "الخندق المحارب" قبل أن تبادرها رصاصات تقتل.. رصاصات صوتها يقتل وتأثيرها يقتل وضحك شقيقتي يقتل، ولكننا لم نمت..حزناً فحسب.

أذكر أصوات الراجمات الأخيرة التي سمعناها، راجمات عون وجعجع وسوريا.. كنت أسمع من بطني، أشعر بها من بطني، تماماً كما يصدح صوت المغني من بطنه.. كانت صوتاً تمنيت حينها لو أموت فلا أسمعه، صوتاً أبشع من الفعل في حرب أخرستني أصواتها..

في الحرب، كانت خالتي تصوم ولا تفطر، شقيقتي تدرس ولا تنجح، خالي يتقدم في السن ولا ينتج، كانت ابنة خالي تموت ولا تحارب، كان أبي يتصل ولا يسمع، وكنت أنا أسأل ولا أفهم، أخاف ولا أبكي.. كنت أموت يوماً بعد يوم، كنت أعرف أن أموت فأصبحت من أصحاب النكات الدائمة، كائناً هيستيرياً، يريد أن يضحك كي يضحك..

كنت أخاف أن أنام وحدي في السرير، أخاف أن تخرج أمي ولا تعود، كنت أرى فيها دائماً واحداً من مسببات ارتفاع عدد الضحايا، وأرى فيها أيضاً مدعاة دائمة للحداد.. بكيت وفاة امي وهي حية.. بكيت فقداني لها وهي إلى جانبي، وبكيت كل من أحب لأني لم أكن أثق تماماً بأني سأتمكن من حبهم بعد ساعة.

أذكر حبي لجميع المقاتلين وكرهي لهم، أذكر أن الحب حينها كان يشكل ثنائياً ملازماً للكره.. خوفاً من! أذكر أن الحب حينها كان أكثر ما يخيفني وأكثر ما أفتقد..

وانتهت الحرب..

وعدنا إلى المدرسة..

وولدنا من جديد في صباح متأخر..

ونسيت تماماً كل شيء.. نسيت ولم أرد أن أتذكر.. نسيت أمي وأختي وابنة خالي وخالتي.. حتى أبي نسيته.. وقلت : أنا الأقوى، وسمعت أنني المستقبل، وفهمت أن السلام الحالي يحضر لحرب أخرى..

2000 0411-00146-2

جملة كثر ترددها وأصبحت كليشيهاً يقال ببساطة.. كما لو أن قائله لم يعش الحرب ولم يمت خلالها.. أنا مت خلالها.. الحرب إن عادت سأهاجر، وإن تحولت لكلمة في فم "زعيم" أو مفكر، سأهاجر، وإن انتهت سأهاجر..

الحرب كانت طويلة جداً ومرت بسرعة جداً.. كانت أطول من كل ما تبقى من عمري.. وبقي عمري صدى سيئاً لها.. فنحن "جيل الحرب" وفلتانها.. ولكننا أيضاً جيل الحرب ووجعها غير المفهوم، وجعها الذي لم يرحل قط وربما لن يرحل أبداً وبالتأكيد لم يخفت أبداً.

أنا لم أنسَ شيئاً، على عكس، ما توقعت.. أنا أتناسى.

أنا أذكر كل شيء للأسف.

فأرجوكم أن تتمهّلوا قليلاً قبل أن تنسوا.. كي لا أفقد أشياء أخرى.. كي لا أموت، من جديد، وحيدة كوسط المدينة.

سحر مندور